التمثلات الاجتماعية للكورونا

Corona social representations

youssef ben salah / ***أ. يوسف بن صالح***

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس

bensalah.youssef@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/05/16 تاريخ القبول: 2021/07/06. تاريخ النشر: 2022/01/02

ملخص نهتم في هذه المحاولة برصد التمثلات التي تشكّلت لدى المواطن التونسي عن وباء كورونا طيلة فترة الحجر الصحي وبتوضيح كيفية إدراكه للمخاطر التي باتت تهدده في عقر داره رغم كل الاحتياطات والبرتوكولات الصحية. فقد ترتب على وباء كورونا المنتشر ظهور سلوكيات جديدة وتصوّرات مستجدة خاصّة أنَّ المواطن في تونس، وفي مختلف دول العالم، كاد يفقد البوصلة والاتجاه السليم من خلال المشاهد المرعبة من جهة، ومن غرابة الفيروس وعدم التمكّن من ضبط حقيقته. وبرز شكل حياة اجتماعية جديد كان بمثابة قطيعة مع النمط الاجتماعي السائد، متمثّلاً خاصة في حظر التجوال، والتباعد وقلة التفاعل الاجتماعي، وهذا بعدما كانت التفاعلات وديناميكية المجموعات والعيش المشترك معيارا للسلم الاجتماعية وتشكّلت عن كلّ ذلك تمثلات اجتماعية عن هذا الوباء.

الكلمات المفتاحية: التمثلات، الوباء، المخاطر، الفيروس، الانعكاسات النفسية.

Abstract: *We are interested in this attempt to monitor the representations that occurred to the citizen throughout the quarantine period from the Corona epidemic. And how to be aware of the dangers that now threaten him in his home, despite all the precautions and healthy protocols. The spreading global epidemic of Corona has resulted in the emergence of new behaviors and emerging perceptions, especially that the citizen in Tunisia and in various countries of the world has lost the compass and the right direction through the terrifying scenes on the one hand and the strangeness of the virus and the inability to control its reality. These representations had the emergence of a new form of social life that represented a rupture with the prevailing social pattern and represented in particular curfew, lack of interaction,*

divergence and lack of communication after the interactions, group dynamics and coexistence were a criterion for social peace.

Key– words : *representations, epidemic, risks, virus, psychological repercussions*

مقدمة:

هل كان من المتوقَّع للبشرية في العصر الحديث أن يأتي عليها يوم يحدّ من حريتها بإرادتها في كافة أرجاء العالم، وتتوارى وراء الأبواب خوفا من وباء بات يتهددها من احتكاك عابر بجماد أو إنسان حامل لفيروس كورونا حتى أضحى الأفراد غير مرئيين (اجتماعيين/ اجتماعيًّا)[1]. كيف قبلت البشرية بعمليات المراقبة الشرعية وبصفة رسمية وبعلمها التام بها؟ أيقضّ هذا المنعطف مضجع الذات المطمئنة. فكل التدابير الوقائية والحذر المستمر وسلوكيات التعقيم الجديدة والتباعد والكمامات لم يعد لها من همّ سوى التحصين من فيروس لا عهد للناس به. كما أنّ الصور المرعبة والمشاهد القاسية التي تجتاح شاشات التلفزيون وشاشات الهواتف، بشكل صارت معه بقية الأخبار هامشية وثانوية، ما زادها رعبا مشاهد التخلص من الجثث بطرائق دفن لم تعهدها جل الحضارات الإنسانية على اختلاف عقائدها وعاداتها... كان هذا الحدث الكوني منذرا بتشكل مفاهيم وقيم وتمثلات جديدة عن الواقع لمختلف الأجناس. فقد أصبح الاعتماد أكثر على مؤسسات اجتماعية بديلة عن مؤسسات الدولة والتعويل على الذات والمساعدات المتبادلة والرعاية باعتبار أن الوضع كان أشبه ما يكون بحالة حرب تتهدّد الأرض من عدو لا تراه.

كما انتاب البشرية في تونس وغيرها من دول العالم الموبوءة رعب وحيرة وخوف من المستقبل وضبابية المصير ومن خطر معولم لا يستثني أحدا مهما كان جنسه أو صنفه. زادت المصادر المجهولة للوباء من درجة الخوف والحيرة والاضطرابات النفسية مما جعلها تخوض في تفسير العالَم بدلا من تغييره على عكس عبارة ماركس. وقد اتسعت دائرة المناقشات حول هذا الوباء حتى كانت حديث الطبيب وعالم

الفيروسات، وعالم الدين وعالم السياسة ورجل الاقتصاد والمثقف والفيلسوف والعامل والعاطل عن العمل. وهذا ما يدفعنا للتساؤل عن كيفية تمثل البشرية هذا الوباء؟ وعن التأثيرات المستجدة المترتبة على هذه الصور الناتجة عن وباء مستجد؟

يهدف البحث إلى التعرّف على تمثلات الفرد التونسي لوباء كورونا ومخاطره، وعوامل انتشاره وتفشيه، والآثار النفسية المترتبة عنه خاصّة في فترة الحجر الصحيّ أثناء الموجة الأولى.

وتتمثل أهمية البحث في محاولة الإجابة عن بعض التساؤلات والاستفسارات من ذلك، ورصد كيفية تعامل الفرد التونسي مع الوباء، خاصّة الجيل الذي لا عهد له بالأوبئة، في هذا الظّرف المعولم الذي بلغ فيه العلم أقصى درجات تقدّمه، والنظر في حجم المخاوف والآثار النفسية والاجتماعية المترتبة على هذا الوباء طيلة فترة الحجر الصحيّ.

منهجية البحث:

نظرا للضرورة التي فرضتها جائحة الكورونا من وجوب التباعد الجسدي قمنا بتوزيع استبيان عن بعد عبر الانترنت من خلال محرّك قوقل فورم Google (Forms) حول الآثار النفسية الاجتماعية للكورونا زمن الحجر، وكان بالاستبيان قسم مخصّص لتمثلات التونسي للوباء. وتتضمن عينة البحث ثلاث عينات من جملة 233 مستجوب، يتوزعون حسب المتغيّرات السوسيوديمغرافية الكلاسيكية: النوع/الجنس والسن والمستوى التعليمي والانتماء الجغرافي والحالة المدنية والمهنية. مع العلم أنَّ الإطار المكاني للبحث كان قد شمل مختلف ولايات الجمهورية منذ أواخر شهر مارس، أي عند بداية توسُّع دائرة انتشار الوباء إلى أواخر أفريل 2020 (فترة الحجر الصحيّ).

–تقنيات تحليل المعطيات.

اعتماد المقاربة الوصفية من خلال تحليل محتوى الجداول أو الرسوم البيانية.

–المقاربة النظرية:

إنّ التمثلات ليست فقط جمعية collectives تتكوّن عبر الأجيال وغير قابلة للتغير، بل هي كذلك اجتماعية قابلة للمراجعة والتجديد والرسكلة وإعادة البناء من قِبَلِ المجموعات التي تكوّن المجتمع الواحد. لتنتج بذلك معارف الحسّ العام أو التفكير الاجتماعي حسب ك. قيملي– C.Guimelli، ويتكوّن الحسّ العام كما بيَّن موسكوفيسي من نسق من القيم والمفاهيم والسلوكيات المرتبطة بسمات ومواضيع يحدد معالمها الوسط الاجتماعي وتمكّن من استقرار حياة الأفراد والجماعات ومن توجيه وصياغة السلوكيات وردات الفعل المناسبة. وهي أيضا وسائط بين الشخص والوضعية المتواجد فيها[2].

ويعرف ج.ك أبريك– J.C Abric التمثّل بأنه مجموعة منظمة من المعلومات والمواقف والمعتقدات والاتجاهات حول موضوع ما، أنتجت وبلورت اجتماعيا. يحمل كل قيم النظام الاجتماعي والإيديولوجي وتاريخ المجموعة التي تتبناها، والتي تمثل جزءا أساسيا من رؤيتها إلى العالم.[3] ونعتمد فكرة التمثلات لرصد كيفية تمثل التونسي لوباء الكورونا ولمدى خطورته على البشرية، بحيث تجمع غالبية أفراد الفئة المستجوبة على أنّ هذا الوباء يشكّل خطرا كبيرا، وهي بنسبة 75% أي ثلاث أرباع العينة. فقد أشرفت جامعة المسيلة بالجزائر على ملتقى علمي تحت عنوان "القوة القاهرة وأثرها على حركة التشريع العام"، وقد خلص بعض المتدخلين إلى أن جائحة كورونا تعدّ قوّة قاهرة لتوفر شروط القوة القاهرة فيها حيث كونه حدثا عاما وغير متوقع ولا يمكن دفع أثاره[4].

كما أعلنت منظمة الصحة العالمية في 30-01-2020 أن تفشي فيروس كورونا المستجد يصنّف كحالة طوارئ صحية عالمية تثير قلقا دوليا[5]. وبعد هذا التصريح بمدّة وجيزة تصدر المنظمة ذاتها بيانها الثاني في 11 مارس 2020 تبين فيه أن كورونا قد بلغ مستوى الجائحة، داعية مختلف دول العالم لمواجهته والحدّ من انتشاره وتطويقه

بأي شكل من الأشكال للتخفيف من تداعياته. فمعللة ذلك بمخاوف حقيقية بشأن المستويات المقلقة لانتشار الفيروس[6]، ولعلّ السبب في الحكم على أنّ الوباء خطير جدّا يعود إلى عدة عوامل. من أولى هذه العوامل أنه وباء قاتل تسبب في موت الآلاف من المصابين في العديد من دول العالم وفي ظرف وجيز، وباء جديد لا عهد للبشرية به من قبل، وفيروس مستجد تجاوز سقف البحوث العلمية واستعصى اكتشاف لقاحه أو دوائه على الرغم من التقنيات المتطورة والبحوث العلمية السريعة. ومن مظاهر خطورة هذا الفيروس حسب ما يتراءى للمواطن التونسي أو أي مواطن في العالم وهو يشاهد الشاشة ويتابع وسائل الاتصال الحديثة هو مشاهدة عشرات الشاحنات العسكرية والطبية اليومية تشق شوارع كبرى مدن العالم محملة بصناديق الموتى دون طقوس للدفن أو التعزية أو أي ورود توضع على المقابر. وكان مشهد كيفية تكفين الموتى ووضعهم في أكياس بلاستيكية مضاعفة يبعث نوع من التحسر والأسف واللوعة في المشاهد، ممّا زاد من درجة الخوف من الوصم والإقصاء بعد الموت: فغياب المراسيم و انعدام حرمة الميت والخوف من المجهول والطارئ والخوف من موجات لاحقة فتطول المدّة وتتضاعف فيها الأزمات بمختلف أنواعها.

ويذهب "سايمون كريتشلي" الفيلسوف الانكليزي إلى أن السبب الرئيسي لحالة الاضطراب والفزع التي نعيشها على الدوام هو خوفنا من الموت، لقد قفز الموت إلى مقدمة حساباتنا اليومية بعد أن ظلّ وقتا طويلا احتمالا غائبا[7]. فانغلاق العالم على ذاته والتحذير الإعلامي بالتباعد وغسل اليدين ومختلف أشكال الوقاية الجديدة تنبئ بأن الوباء خطير جدّا. وكان البروفيسور الإيراني "خسرو باقري" الأستاذ في جامعة طهران مصيبا حين وصف كورونا بأنه "المعلم الأخير" فيروس أيا كان وإنسان أيا كان.. عامل بناء أو فيلسوف، الفيروس أي فيروس بدءًا من الأنفلونزا الإسبانية إلى الخنازير والطيور وأنواع أخرى من الأوبئة الخطيرة مثل الطاعون والكوليرا والايدز والإيبولا والسارس، تكون مهمته الوحيدة شن حرب بلا هوادة على الجنس البشري

عدوه الوحيد. كل الفيروسات لا صلة لها بهوياتنا الفرعية سوى هويتنا الجامعة وهي البشرية ومنها اشتقت الإنسانية. مع ذلك فإن كل الفيروسات التي سبقت كورونا لم تكن مثله على صعيد استهداف الإنسان أيا كان وبسرعة غير مألوفة"

I. تمثل نسبة خطر الكورونا

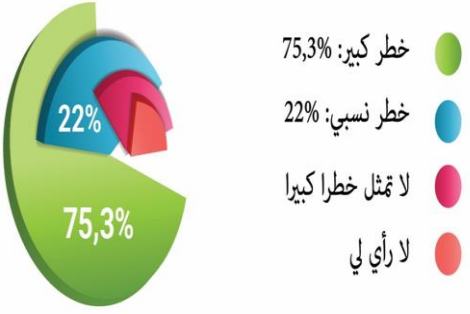

الرسم البياني عدد1: تمثلات مخاطر كورونا

يرى 75% من المستجوَبين أن فيروس كورونا يمثل خطرا كبيرا، و22 % أنه خطر نسبي، أي مجمل 97 % يرونه خطرا ويختلفون فقط في النسبة. ويمكن إيعاز هذه النسب إلى عدة عوامل متنوعة ومتفرقة. ولعلّ من أولاها الدخول في حجر صحي، فهو حدث قد يكون لأول مرة في التاريخ لأنه ظاهرة جديدة وعالمية تخطت مشهد الحروب العالمية السابقة، بحيث أجبر الفيروس مختلف سكان المعمورة على ملازمة البيوت مع التشديد أحيانا على تطبيق إجراءات وبروتوكولات الحجر الصحي التي قد تصل بالمخالفين إلى أشكال ردع قاسية، وإغلاق المدارس والمحلات والمكاتب والمؤسسات الاقتصادية نذير بخطورة الوضع، وكذلك المشاهد اليومية في مختلف وسائل الاتصال الحديثة والوسائل السمعية البصرية والأخبار عن الإصابات وارتفاع في عدد الوفيات في مختلف أرجاء العالم، والمشاهد المرعبة للشاحنات العسكرية المحملة

بصناديق الموتى باتجاه المقابر، أكّدت للسواد الأعظم من الناس أن الوضع الوبائي في غاية الخطورة.

من ضمن المؤشرات الدّالة كذلك على خطورة الوباء غرابة الفيروس في حدّ ذاته، فهو غريب وعجيب ليس شبيهاً بالفيروسات المعتادة، فهو عدو خفي يتسرب للجسم ولا تظهر عوارضه في الحين إلا بعد أسبوع أو أكثر وتتراوح درجة الخطورة بحسب مناعة الشخص. فقد ذكر أحدهم أنه يقوم ليلاً يتلمس ويتفقد أباه وأمه ما إن كانا مازالا من الأحياء أو قد أغمي عليهما أو توفيا فجأة، وذلك من درجة الخوف الذي أصابه عند بداية الوباء، والبعض يخزن المؤونة لأشهر لاحقة معتقدا أن الوضع أصبح يستوجب الانزواء الكليّ والعيش داخل البيوت.

وقد فتك هذا الوباء بأكثر الدول اهتماماً بالصحّة والعلاج وذات سلوكيات حفظ صحّة، ونعني بذلك الدول الأوروبية والأمريكية، فهي أكثر الدول تطورا من الناحية العلمية، ومع ذلك أبدت عجزها على التصدي ومقاومة الوباء علميا في البداية؛ ومن الناحية اللغوية تكرّرت كلمة الحرب على ألسنة الحكام والساسة في جملة خطاباتهم، والحرب بحدّ ذاتها إحالة على خطورة الوضع.

كان الوضع الوبائي خطيراً عند الموجة الأولى، والأموات بالآلاف يوميا في العالم وانتشار الفيروس سريعاً، والدواء غير موجود، واللقاح غير جاهز ويتطلب وقتاً كي يتمّ اختباره والمصادقة عليه من قِبل منظمة الصحة العالمية. فالجو العام كان قاتما، والخوف انتاب البشرية وكأنها مقبلة على حرب كونية شبيهة بالحروب العالمية السابقة وبفترات الاستعمار بل وأكثر شراسة، خاصة وأن وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي تكررت لديها كلمة كورونا " ألاف المرات وفي لحظات قصيرة، فأصبح العدو الأول للإنسان هو هذا الفيروس[8].

وممّا يدل على خطورة الوباء السلوكيات اليومية بحيث أجبرت فئات عدّة على ملازمة البيوت، وحتى الزيارات بين الأهل قد انقطعت، وازداد الحذر بمراعاة التباعد

واستعمال الكمامات والتعقيم وعدم المصافحة، ودخول الصيدليات وغيرها من المراكز التي تواصل نشاطها باحترام المسافة الجسدية ، وكل ذلك من أجل تجنب أي شكل من أشكال العدوى، وما يزيد من درجة الخطورة وهول الفاجعة هو البنية التحتية الصحية التونسية الهشة التي تحتوي على عدد جدّ محدود من أسرّة الإنعاش وقارورات الأكسجين لمواجهة عدد كبير من المصابين.

أما الفئة الثانية، والتي ترى أنّ الوباء خطير بشكل نسبي، فإنّ حجتها تكمن في التصريحات الأولية التي تقرّ بأن نسبة الوفيات لا تتجاوز 2 % من عدد المصابين وأنّ أكثرهم هم ممّن يُعانون من أمراض مزمنة بالتحديد. ويرى بعض آخر أن الوباء يمثل خطراً نسبياً باعتبار أنّ الفيروس هو شبيه بفيروس الحمى (القريب) حتى أنّ عوارضه شبيهة بالحمى كارتفاع الحرارة وضيق التنفس والإسهال والعطس والسيلان من الأنف... فالتنسيب من خطورة المرض يُعد شكلاً من أشكال التهوين على النفس.

II. القلق والشعور بالذنب من المنعرج القيمي الحضاري

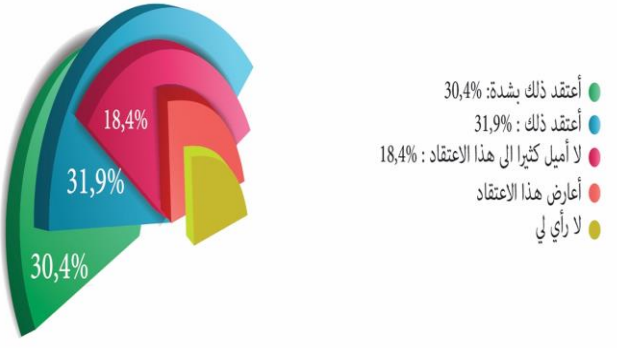

رسم بياني عدد2: دلالات أزمة الوضع النفساني

يعتقد 30.4% من المستجوَبين بشدّة أن الجائحة تحمل دلالات دينية و 31.9% منهم يعتقدون ذلك في حين لا يميل 18.4% منهم إلى هذا الاعتقاد مقابل 10.3% يعارضون هذا الاعتقاد و 9% لا رأي لهم.

ورد في بعض الأحاديث أن الطاعون يقع عند فشو الفاحشة كما في الحديث الآتي: "ولم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتى يعملوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت مع أسلافهم[9]. وتقرّ فئة من المستجوبين أن وباء كورونا له دلالات دينية، وما حصل للعالم هو عقاب من الله، ولعلّ مردّ هذا التفسير اللاهوتي هو غياب التفسير العلمي لذلك، بمعنى أن العلم رغم تقدّمه وبلوغه أشواطا إلا أنه وجد نفسه حائرا وعاجزا عن السيطرة السريعة على فيروس بات يتهدد البقاء الإنساني في كافة أرجاء المعمورة. ولذلك أقرّ "المنبجي" وغيره أنّ من أسباب الطاعون والزلازل والفتن شيوع الزنا، وهو يندرج تحت أصل عام وهو أنه "سبق حكم الله النافذ وحكمته البالغة انه إذا عصى أمره ضيعت حدوده وانتهكت محارمه وبدلت أحكامه وغيرت معالم دينه، أن ينزّل بالخلق عقوبته ويمسك عنهم رحمته ويبلوهم ويعاقبهم بأنواع العقوبات المختلفات[10]. وباتت الإنسانية وفق هذا المنظور مهدّدة في كل وقت وحين ولا ملجأ لها سوى العقيدة للمواساة ولرفع البلاء، طالما أن العلم ليس بمقدوره إنقاذ البشرية في أسرع وقت، فالتحاليل والدواء واللقاحات لها مدتها الزمنية القانونية والطبيعية لتكون جاهزة.

حاول ابن نجيم أن يستخلص الحكمة من ذلك فقال: "ولعل حكمته أن الزنا لما كان غالبا يقع في السرّ سلط الله عليهم عدوا في السر، يقتلهم من حيث لا يرونه[11]. إن تفسير المسألة بالعقاب الربّاني لدى البعض يمكن أن يعزى إلى عدم الإدراك الحقيقي لأسباب الوباء، أي فيما إذا كان بفعل فاعل أم أنّه حدث فجيء وإنّ الوباء عبر التاريخ لا يستهدف العالم بأسره كما هو الحال في جائحة كورونا، بل يستهدف بلدانا معينة أو مجموعة بشرية، ولنا في ذلك أمثلة كالملاريا في إفريقيا وإيبولا في إثيوبيا

والسارز في الصين وفيروس زايكا في البرازيل والطاعون الجارف في أوروبا، والذي استهدف ثلثي القارة الأوروبية... والوباء في هذه الحقب وبهذه الدول كانت مصادره معلومة، في حين تعذّر معرفة مصادر هذا الوباء الذي رأت فيه البشرية ما يشبه نهاية العالم. فالعديد من الدول المسيحية التجأت للكنائس، وفي الدول الإسلامية التجأت تضرعا إلى الله لرفع الوباء...فالبشرية بحكم تجاربها تسعى دائما إلى تفسير الأحداث والوقائع لسدّ مختلف الثغرات الميتافيزيقية «béance métaphysique »، فقديما كانت الأسطورة سائدة في تفسير الظواهر الطبيعية، وبقدوم العلم تحول مجرى البحث من الميتوس إلى اللوغوس، ودائما عندما يعجز العلم عن التفسير تلجأ البشرية إلى الرمزي والعقدي خاصة في المجموعات الإسلامية ذات العقل العقائدي على حدّ اعتبار "محمد عابد الجابري". فالدين عزاء من لا عزاء له كما بيّن "فرويد"، والدين قد ذكّر الإنسان بضعفه مهما علا شأنه وكما ورد في القران الكريم "وخلق الإنسان ضعيفا[12]". وعلى ذلك، فإنّه لا حيلة للإنسان في مثل هذا الظرف سوى الاستعانة بالله من أجل مجابهة الكارثة والتحصين من شرّ البلاء. فلم نر تجاوز الأزمات بالفنون أو بالشعر أو بالعمل بقدر ما تجد الإنسانية نفسها في عديد المرّات ملتزمة دينيا تراجع ذاتها وتتذكر المصير الإلهي.

أما الفئة الثانية، والتي لا تميل كثيرا لمثل هذا الاعتقاد الذي يقوم على التفسير اللاهوتي، 18.4%، فهي من الفئات التي لا ترى في عالم الغيب مبرّرا، بل ترى أن المسألة كانت نتيجة خطأ بشري ونقص في وسائل الحماية في مخبر ووهان الصيني. وترى أن الحدث شبيه بالحربين العالميتين الأولى والثانية اللتين مسّتا مختلف بلدان العالم، ولعلّ المسألة ازدادت حدّة هذه المرّة نتيجة العولمة وتطور عمليات التنقل والتبادل بين مختلف دول العالم دون استثناء.

ويتقاطع هذا الرأي مع الرأي المعارض لهذه الفكرة القائمة على الحساب والعقاب الإلهي للشعوب على أفعالها، وإنّ القول بفكرة العقاب قد تزيد من حدّة التوتر

النفسي والضغط وتدخل البشرية في مراجعات كبيرة تتمثل في تعديل سلوكها وتصحيح مسارها على الأنموذج الديني الشرعي وليس القانوني الوضعي. وهذه الفئة التي تعارض هذا الرأي تحكمها القناعات الإيديولوجية مفادها أن العالم تفسّره العوامل المادية الطبيعية وليس الغيبي المتعالي.

III. عوامل انتشار كورونا

1-نظرية المؤامرة

الرسم البياني عدد3: تمثلات أسباب الكورونا

اجتمع ذات يوم نحو خمس مئة من أهم عناصر النخبة من الاقتصاديين والسياسيين العالميين في فندق فيرمنت Fairmont hotel في فرانسيسكو الأمريكية ما بين 27 سبتمبر و 1 أكتوبر من سنة 1995، كان من بين المشاركين في هذه الاجتماعات (ميخائيل كورفاتشوف وجورج بوش الأب وماركريت تاتشر وبيل كيت ورئيس مؤسسة CNN، وذلك من أجل مناقشة وتحديد ورسم السياسات الاقتصادية لتدبير أفضل لمستقبل العالم.

كان من بين أهم الاقتراحات التي خرج بها المجتمعون أنّ 20 % فقط من الفئة النشيطة في العالم هي كافية للقيام بالأنشطة الاقتصادية وإدارة آلات الإنتاج، لكن

ماذا سيكون مصير 80 % المتبقية؟ هنا يقترح الليبرالي دزبجنيوبرجنيسجي مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي جيمي كارتر مابين 1977-1981 بأن الحلّ هو Tittytainment)، فما يقصد بهذا المصطلح المنحوت من كلمتين انجليزيتين (tits وتعني حلمة الثدي و Entertainment التي تفيد التسلية والترفيه؟ يشرح مبدع الكلمة بأن 80% هذه يجب إسكاتها بقليل من الطعام (tits) و Entertainment لتهدئة خواطرها، ولا يمكنها العيش إلا من خلال الإحسان والتبرعات ولأنها فائضة من حاجة المقاولات التي ستعتمد أكثر على التقنية والكفاءات العالية[13]. إن الغاية تبرر الوسيلة في المنطق السياسي، وفي الزمن المعولم بالتحديد الذي انعدم فيه اليقين حسب "إدغار موران" وأصبح الفجائي هو المفسّر للظواهر، وفي ظل ما يعيشه العالم اليوم من نزاعات وحروب وأزمات اقتصادية وفتن ومجاعات وفنون اقتتال وثورات وهزات وصراعات إيديولوجية وحضارية، لا نستبعد المؤامرات التي يستعمل فيها المتآمرون مختلف وسائلهم من أجل تحقيق مقاصدهم.

يمكن تعريف المؤامرة على أنها "التخطيط والعمل في الخفاء لإحداث تغيير يعاني معه الفرد أو الجماعة أو الدولة المستهدفة من مشكلات غامضة يصعب الوصول لأسبابها أو مسبباتها الموضوعية[14]"، وتنشط نظرية المؤامرة في حالتين، فالحالة الأولى وهي عندما نشعر بالعجز في مواجهة الواقع ولا نعرف كيف نفسر شيئا ما علميا، أو لا نريد الاعتراف بدورنا في شيء سيئ مثل الهزيمة في معركة ما. وفي اللحظة الثانية وهي عندما نصنف فئة من الناس بماهيات حادّة تجعل منها عدوا مطلقا أو خائنا أو مقابل طرق ثان هو الضحية المطلقة التي تؤدي دور المظلومية[15]. فلو اعتمدنا الحالة الأولى لكانت فكرة الاعتقاد بأن فكرة المؤامرة من وراء كورونا أمر واقع، نظرا للمفارقة العجيبة التي شهدها العالم من بلوغه أحدث التطورات والسرعة في الابتكار والإنجاز وسعة علمه بالفيروسات والأسلحة البيولوجية والجرثومية، ومع ذلك يعجز عن مقاومة فيروس، فهذه حيلة لم تنطل في رأي البعض. ووفقا لنظرية المؤامرة وما ذهب إليه

فرنسيس جالتون (ابن خال داروين) في القرن التاسع عشر من أن شفرة الانتخاب الطبيعي قد باتت ثلمه، وما علينا سوى أن نشحذ هذه الشفرة لاستبعاد العاجز والضعيف والمريض مثلما يفعل مربي النباتات والحيوانات والإبقاء فقط على من يتمتع بصفات مرغوبة لصالح النوع أو بالأحرى لصالح الاقتصاد الدولي[16].

ويمكن الاستناد إلى مؤشرين دالين على أن انتشار المرض فيه لبس وغموض ولا تستبعد عمليات المؤامرة. فزوبعة جائحة كوفيد19 لم تكن الأولى في سجل تاريخها المليء بالفساد، بل تذكرنا بحادثة أنفلونزا الخنازير التي وصفت كأكبر كذبة تبنتها المنظمة في القرن 20، حيث تبين أن البروفيسور ألبرت اوسترهاوس من جامعة ايرسموس روتردام بهولندا، الذي كان على رأس المهولين من وباء أنفلونزا الخنازير، عام 2009، ليس فقط على علاقة مباشرة بشركات تصنيع الدواء، بل هو المستشار الرئيسي لمنظمة الصحة العالمية بشأن الأنفلونزا، الشيء الذي يمكن أن يحقق له أرباحا خيالية من وراء عمليات اللقاح التي يزعم أنها تستهدف فيروس الـ H1N1 والحقيقة في كل ذلك، أن الوباء لم يكن بتلك الضخامة التي صورها اوسترهاوس وفريقه. وان ذلك الكمّ الكبير من الكذب باسم المنظمة كان وراءه ما وراءه من المصالح التجارية[17].

ومن أوضح الكلام كذلك حول اختراع المؤامرة عبر منظمة الصحة العالمية ما ورد من تصريحات لبيل غيتس في إحدى محاضراته سنة 2015: لو تسبب شيء في مقتل عشرة ملايين شخص في العقود القليلة القادمة، فمن المرجح أن يكون ذلك فيروسا شديد العدوى وليس حربا. وحظيت كلماته التحذيرية تلك ببعض التغطية الإعلامية آنذاك، ومن بينها بي بي سي. ولكنها مرت دون أن يلقي الكثيرون لها بالا. وقد أبدى، بعد ظهور جائحة الكورونا المستجد، الكثيرون اهتماما كبيرا بأسباب ما قاله غيتس أكثر من فحوى الكلام ذاته، حتى اتهمه البعض بزعامة طبقة من الصفوة العالمية، ويرى آخرون انه يتزعم محاولات لتجريد العالم من سكانه[18].

ونجد في الرسم أن أعلى نسبة تقرّ بالمؤامرة من وراء انتشار المرض، بحيث يعتقد 41.1 % من المستجوَبين أن كورونا فيروس مؤامرة من بعض الدول والمخابر في حين يردّه 16.8 % إلى التدهور القيمي و13.2 % يرونه نتيجة اختلال المنظومة البيئية و10.7 % نتيجة عوامل أخرى. أصبح الكثير من العلماء متخوفين من نتائج هذه الثورة البيولوجية ويعتقدون بأن الخطر قد يكمن في نتائج بعض تجارب العلماء، من حيث خلق سلالات بكتيرية تحمل صفات لها أثر مرضي مميت على الناس تتسرب إلى الطبيعة ناشرة وباء ليس له وسيلة لتحصين الناس[19]. فهناك نسبة مهمة في الرسم تعتقد أنّ انتشار الوباء ليس انتشارا بريئا، وقد يجد هذا الرأي حجته المنطقية في هذا الظرف بالتحديد. وإنّ نظرية المؤامرة هي من إحدى إفرازات النظام الرأسمالي، فهذا النظام وبحسب القراءة الماركسية عواقبه وخيمة، فقد أنتج العديد من الكوارث العالمية من الاستعمار إلى الحروب العالمية إلى الأزمات الاقتصادية والتغيرات الجغراسياسية للعالم واللوبيات والمنظمات السرية والصراعات الحضارية والقطبية العالمية وحتى التقلبات المناخية، فهو نظام فلسفته المصلحة فوق كل اعتبار بصرف النظر عن المخلفات والنتائج. ففي مواجهة الاتهامات الأمريكية للصين بأنها المتسببة في تفشي الفيروس، استخدمت الحكومة الصينية نظرية المؤامرة للترويج لمسؤولية الجيش الأمريكي عن تفشي الفيروس في الصين، وهو ما يعد استخدام التكتيكات دعائية التي طورها الاتحاد السوفيتي إبان الحرب الباردة؛ عندما اتهم جهاز الاستخبارات السوفيتي الجيش الأمريكي بتصنيع فيروس الإيدز في معهد الأبحاث البيولوجية الأمريكي "الري في فورت ديتريك"[20].

من جانب آخر يمكن اعتبار أن الولايات المتحدة ضالعة في المسألة ولها معلومات سرّية ومتكتمة على ما يحصل، وتجدر الإشارة -في هذا الصدد- إلى أنه يتوفر حاليا لدى الاستخبارات الأمريكية مرفق مخصص بالفعل لمحاربة (كوفيد- 19)، وهو المركز القومي للاستخبارات الطبية NCMI ومقره فورت ديريك بولاية

ميريلاند، ويعمل بالمركز القومي للاستخبارات الطبية عدد من خبراء الأوبئة، وعلماء الفيروسات، وغيرهم، ويعد هذا المركز –وفق توصيف "فورين بوليسي"– بمثابة "عن أمريكا وأذنها" فيما يتعلق بالتهديدات البيولوجية منذ عام 2008 وحتى كوفيد–19[21]. ومؤدى النظرية باختصار أن فيروس كورونا جزء من خطة تحويها أجندة سياسية اقتصادية دولية خفية، وأنه مجرد حلقة من حلقات سابقة وتالية من الفيروسات المخلّقة معمليا (ذات السلالات الموجهة المختلفة) لتحقيق أهداف معينة عن طريق بث الرعب في نفوس الناس[22].

والغريب أن الدول المتقدمة والنامية على حدّ سواء تتنافس في ترويج ذلك الكذب الذي يوهم المواطنين البسطاء بالقوة وزخم الإرادة. ومن ثم تقبل الامتلاءات السياسية والاجتماعية التي تنجر عن ذلك. وطبيعي جدا، أننا لم نرى تنافسا في بناء مخابر بحثية لمحاصرة المرض واستيعاب العقول النشطة من أصحاب الشهادات العليا وحتى الدكتوراه، للبحث في حقيقة الكوفيد19، وحقيقة خطره واكتشاف علاج له يكون للإنسانية[23].وإنّ ظهور الوباء في الشرق، الصين، دليل على أن هناك ردة فعل من حيثُ إن الحروب المستقبلية هي حروب فيروسات وبيولوجيات بالأساس، وهي أعتم أنواع الحروب وأقلها تكلفة. ويمكن القول إن فيروس كورونا رسالة من الصين إلى العالم خاصة وأنّ هذا البلد حقق ثورة علمية وتكنولوجية واقتصادية وقوة ديمغرافية تؤهله لقلب موازين القوى وتغيير نظام الزعامة من الغرب إلى الشرق.

كما أن الفارق بين الرأي الأول وبقية الآراء التي تليه يبدو كبيرا، فالرأي الثاني القائل بانهيار المنظومة القيمية، وهو بنسبة 16.8% فقط، مفاده أنّ اختلال القيم وطغيان الجانب المادي على الجانب القيمي الرمزي هو الذي أدى إلى ظهور مثل هذا النوع من الوباء. فالعلاقة بين الإنسان والطبيعة علاقة منفعة وربح ولم تعد الروح المسئولة والضمير هو الحكم بقدر ما أصبحت المنفعة والمكاسب هي مقاصد أفعال البشرية والشركات ومؤسسات الإنتاج. وينتج عن ذلك غياب الروح التضامنية

والتعاون، وتبرز في مقابل ذلك المؤامرات والحروب الخفية. ويتجاوز أستاذ فلسفة الأخلاق والسياسة "مايكل ساندل" أسئلة الفلسفة الأخلاقية لعودة الحياة إلى مجراها الطبيعي إلى سؤال هو "ما الحياة الطبيعية" التي نريد أن نحياها بعد انتهاء الجائحة.

ويرى "ساندل" أن في المنظور الليبرالي للفرد إهمالا للبعد الاجتماعي في تكوين الذات الإنسانية، ويطرح قيمة المساواة والمسؤولية الأخلاقية التي يمتلكها بعضنا تجاه بعض، على قاعدة المواطنة والانتماء لبلد واحد[24].

نجد من المستجوَبين من يعتقد أن أسباب الوباء تعود إلى خلل في المنظومة الغذائية، ولعلّ أولى النشرات عند ظهور الوباء كانت تتحدث عن نظام غذائي غريب عند الصينيين مثل أكل الخفافيش والحشرات، الأمر الذي يكون قد خلق لديهم خللاً جينيّاً. فقد يكون سببه التلوث المرعب الناجم عن التوحش في العادات الغذائية للإنسان المفارق للطبيعة (أكل الحشرات النيئة، أو قد تكون بواعثه نوعا من الحروب البيولوجية التي تخوضها الدول الكبرى في الصراعات من أجل السيطرة على العالم)[25]. كما يمكن تأويل الخلل في المنظومة الغذائية بنوعية الاستهلاك اليومي في معظم دول العالم، أي الاستهلاك المفرِط للمعلّب الجاهز والمصنّع مما جعل التركيبة البيولوجية هشة وسريعة التأثر بأيّ عامل خارجي.

وفي الأخير، نجد رأيّاً مختلفاً لا يقلّ أهمية، ويتعلّق بالمعطى البيئي حيث أقرت نسبة 10.7% أنّ الوباء هو نتيجة خلل بيئي طبيعي جرّاء ما أصاب البيئة الطبيعية من دمار وهلاك وتلوث وتخريب من النشاط الإنساني، وحتى لو كان الفيروس متسربا من أحد المخابر إلاّ أنَّه انتشر وفتك بالبشرية نتيجة وضع بيئي متدهور وبيئة مهيأة وجاهزة لنقل العدوى.

IV.الآثار النفسية الناجمة عن عودة الوباء في الموجة الثانية.

الرسم عدد04: الحالة النفسية إثر عودة كورونا

يتحلى 37% بالتفاؤل حيال الأزمة، في حين 24.7% يشعرون بالقلق حيال المستقبل، و20.2 % شعورهم عادي، و يشعر 10.2% من المستجوَبين بالتوتر.

يقول خسرو باقري في مقالة بعنوان: (الكورونا المعلم الأخير): لقد غير الكورونا نظرتنا للعالم، حيث أثبت بأن العالم مليء بالأسرار واظهر هذا للعيان، كيف يطوي صفحات حياة البشر، بما لديهم من حضارات بطولها وعرضها. فهو يتمكن، عبر تدخله بتفاصيل بسيطة تكاد لا تساوي شيئا، من جعل البشر كالعصف المأكول وكأنهم ليسو شيئا مذكورا[26].

لقد تغيّر المشهد النفساني عند المواطن التونسي ونلمح ذلك من خلال الرسم، إذ إنّ نسبة التفاؤل عند التونسي تراجعت من 76.8% أثناء الحجر الصحي وعند بداية الوباء إلى نسبة 37% في الموجة الثانية عند عودة كورونا، وهو تراجع بنسبة 40%. إنّ مردّ ذلك عدة عوامل، فالوباء في بدايته كانت نسبة العدوى فيه والوفيات منخفضة جدّا بالمقارنة مع الدول الأوروبية والغربية. وهناك ارتياح كبير وتفاؤل من قِبَلِ التونسيين في انتهاء الموجة الأولى على الرغم من استمرار بقية الدول في إجراءات

الحجر الصحي والاستعداد لموجة ثانية حذرت منها منظمة الصحة العالمية. كما يجب اعتبار عامل الزمن كذلك، وهو مهم جدّا عند التفسير بحيث تسرّب عدد من المعلومات عن كون الوباء لا يقاوم الحرارة مما يبعث على التفاؤل والاعتقاد بأنّ لا عودة للوباء وأنّه حصل الخلاص.

ولكن عندما بدأ الوباء في التفشي من جديد، وخاصّة بعد فتح الحدود في أواخر شهر جوان، بدأت العدوى ننتشر شيئا فشيئا من جديد، وارتفعت بحلول شهر سبتمبر، فأيقنت السلطات المعنية أنّ الوضع خطير وأنها موجة أقوى من الأولى. واحتار المواطن، فالعودة المدرسية بدأت على أفواج، والوضع يزداد تأزما يوما بعد يوم مع ارتفاع نسب العدوى وعدد الوفيات، وبدأت الإحصائيات بالمئات بعدما كانت الموجة الأولى انتهت بعدد الإصابات لم يتجاوز 1600 حالة وعدد وفيات لم يتجاوز المائة حالة.

إنّ التراجع في نسبة التفاؤل بين الموجة الأولى والموجة الثانية كان لصالح نسب أخرى حيثُ أصبحت نسبة من المواطنين في حالة توتر وأخرى متخوفة من المستقبل وفئة محبطة، فالمشهد بات ضبابيا وخطيرا، فظهرت سلوكيات تعكس نفسية مضطربة ومتوترة وقلقة، وفقدت تلك الفئة التوازن النفسي وطغت أحاسيسها على أفكارها وعلى العقل، وكأنها في حالة حرب بالمعنى التقليدي. وليس من السهل أن يستبشر الفرد ويستعد لاسترجاع نشاطه الأصلي وتحصل انتكاسة من جديد، فالانتكاسة أصعب على الفرد نفسيّاً، وهي وضعية أعسر من الوضعية الأولى التي بدأ فيها المرض، تبدأ معها الكوابيس والنظرة التشاؤمية ويقلّ معها الأمل وتبدأ سلوكيات الاستنفار وشبه الإحباط وغيرها من الوضعيات النفسية الحرجة في الازدياد، وترى الفاعلين الاجتماعيين في حيرة من أمرهم.

تبدو الموجة الثانية أكثر فتكاً وعملية السيطرة على الوضع أضحت صعبة جدّا، وهذه المرّة تبدو الحالة النفسية متشنجة وبدأت الأصوات تتعالى للمطالبة بحجر

صحي لتفادي انتشار العدوى. فلم يعد التفاؤل الذي كان في بداية الجائحة موجوداً. ونحن أمام وضع جديد يختلف عن الأوبئة القاتلة التي عرفتها الإنسانية سابقا من موجات الطاعون المريعة في العصور الوسطى إلى الأنفلونزا الاسبانية في نهاية الحرب العالمية الأولى والتي ذهب ضحيتها 50 مليون قتيل من أشهرهم عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر والشاعر الفرنسي "أبولينير" والكاتب التشيكي "فرانز كافكا".[27]

خاتمة:

اختلفت التمثلات حول الوباء فيما يتعلق بمفهومه وهويته ومصادره وعلاجه ودرجة خطورته، كما أن الأوبئة الغامضة من هذا النوع، والتي حيّرت العلماء، فسحت المجال للاعتقاد الديني في تصنيف المرض بالغضب الإلهي على ما قدمت البشرية من أفعال، فدعا الكثيرون إلى تعديل السلوك الذي يستجيب للشروط والمواصفات الربّانية من أجل خلاص البشرية. كما بدت السلوكيات مضطربة ومتناقضة بين الأفراد والمجموعات، بين من يقرّ بإجبارية الحجر الصحي والعزل التام بما في ذلك من حدّ للحريات وتعطيل للأنشطة الاقتصادية والاجتماعية؛ وبين من يعارض ذلك ويرى في الوباء حدثاً عابراً لا يستوجب كل ذلك التهويل، بل ويرى فيه مؤامرة من مثيل مؤامرات الأنظمة الليبرالية المتوحشة. كما ترتبت على هذا الوباء تصوّرات جديدة للأوبئة ولقيمة الطبيعة ممّا يستدعي رسم ملامح أنثربولوجيا فلسفية جديدة تقوم على القيم البيئية ومراجعة أشكال التضامن والتفاعل والتآزر الإنساني والحدّ من مخاطر العولمة.

---

[1]– باريزو، ماري هيلان، «جائحة كورونا (كوفيد–19) بين الهشاشة الاجتماعية والمنطق التقني»، ترجمة رشيد بوطيب، مجلة **تبيين**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد35، المجلد9، شتاء2021، ص114.

[2]–كوثر السويسي، « التمثلات الاجتماعية، مقاربة لدراسة السلوك والمواقف والاتجاهات، وفهم آليات الهوية »، المجلة العربية لعلم النفس، المجلد1، العدد1، 2016،ص49.

[3]–المرجع نفسه، ص،49.

[4]– حفناوي نصري، «هل يمكن اعتبار كوفيد–19 قوة قاهرة» ، مجلة قانون العمل والتشغيل،أوت، 2020، ص، 174.

[5]–شيخ عبد الصديق،« دور الضبط الإداري في الوقاية من انتشار وباء فيروس كورونا »، حوليات جامعة الجزائر 1، المجلد 34 جويلية، 2020 ص51.

[6]– المرجع نفسه، ص51.

[7]– عمر المغربي: تقرير ماذا قال الفلاسفة حول جائحة فيروس كورونا؟ مجلة تبيين، ص173.

[8]– أسيا كسور، دور سلطة الضبط الاجتماعي على فعالية التباعد الاجتماعي في ظل جائحة كوفيد19، مجلة التنمية وإدارة الموارد البشرية–بحوث ودراسات، المجلد 08، العدد 02 ،2020، ص107.

[9]– أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مقبل بن هادي الوادعي، ج4 (القاهرة، دار الحرمين،1997)، ص712، البزار، ج12،ص315، الطبراني،ج5 ص61 وغيرهم.

[10] –معتز الخطيب، الطاعون والوباء،من اللاهوت العملي إلى الأخلاقيات التطبيقية،مجلة تبيين ص 88، مأخوذ عن المنبجي ص 79–77–وص87

[11] – زين الدين، بن نجيم الحنفي، رسالة فيما ضبطه أهل النقل في خبر الفصل في حق الطاعون والوباء، مخطوط، مكتبة، جامعة الملك سعود، رقم، 5935،ق3.

[12] –الآية 28 من سورة النساء.

[13] –الحسن ايت الحسن، بين الاستبعاد والتباعد الاجتماعي،عمال القطاع غير المهيكل في زمن كورونا،(نموذج عمال المغرب) مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 70، ديسمبر،2020، مركز جيل للبحث العلمي، ص86.

[14] –فاروق عمر العمر، المؤامرة حقائق أم نظريات، مطابع الأهرام التجارية قليوب–مصر، الطبعة الأولى 2007، ص89.

[15] –ساري حنفي، عالم ما بعد كورونا، نحو تحويل المحنة إلى إمكانات خلاقة،مجلة إضافات العددان 49-50 شتاء ربيع 2020، ص2.

[16] – صلاح عثمان،كورونا...نظرية المؤامرة! نشر في مركز المحدد للبحوث والدراسات، اسطنبول، تركيا، بتاريخ 4-4-2020ص5.

[17] –عمارة سعد شندول، وداد علي زغبر، نظرة العالم إلى جائحة كورونا وأسلوب التعامل معها، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 5، العدد 1، 30يناير،2021ص11-12.

[18] –المرجع نفسه، ص14.

[19]– أنظر: الحفار، محمد سعيد، البيولوجيا ومصير الإنسان، سلسلة **عالم المعرفة** 83، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1974 ص194. (أورده المولدي، عزديني، «الطب الحيوي بين السياسي والايتيقي»، مجلة **تبيين** العدد، 35، المجلد،9، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات شتاء 2021، ص،47).

[20]–أحمد عبد العليم حسن، اتجاهات تغير أدوار الدول القومية في مرحلة "ما بعد كورونا" دراسات خاصة، سلسلة دراسات تصدر بصورة غير دورية عن المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة أبو ظبي،الإمارات العدد06، افريل 2020، ص9.

[21]- صلاح عثمان،كورونا...نظرية المؤامرة !، ص 1.

[22] – المرجع نفسه، ص1.

[23] –عمارة سعد شندول، وداد علي زغبر، مرجع سابق، ص17.

[24] –عمر المغربي، مرجع سابق، ص،171-172.

[25]– علي اسعد وطفة، الهوية الإنسانية في زمن كورونا، نوفمبر، 2020، ص1.

[26]–المرجع نفسه، نوفمبر 2020،ص،6.

[27] - المرجع نفسه، ص،6.